ميزانية أخلاق

قصة

بقلم عبد الرحمن البيك

حينما تسللت خيوط الفجر الى الغرفة ، وارتسمت على جدرها تنذر بانبلاج الصبح ، شاهدت بامعان بندقية الصيد معلقة على الجدار . كنت ساهرا طيلة ليلتي افكر في وضع حد نهائي للحالة المؤسفة التي وصلت اليها سمعتي بين الناس . وكانت زوجتي ملك تغط في نوم عميق وهي ليست ببعيدة عني .. كانت ترقد في سريرها قبالة النافذة .

وتعالت صيحات الديكة من جميع الانحاء ، كان كل شيء يؤكد لي قدوم النهار ، وقد جزمت بان القتل اذا ما تم تحت جنح الظلام كان ذلك ادعى للخفية والتستر .. هكذا كنت افكر ..

حدث ذلك في المصيف ، بعيدا عن تلك البلدة التي تزوجت فيها ملك، فمنذ ما ينوف عن الشهر جئت بزوجتي هذا المكان لاروح عن نفسها ولاحملها على تناسي بعض ما عانت من جراء حنثي بكثير مما وعدتها به. فلقد جرى الحديث يوم ان خطبتها حول شراء سيارة صغيرة ومنزل جميل، واثاث فاخر و ما اشبه ذلك . واحسبني قد وعدت بكل ذلك مجاملة ، الا ان ذلك لم احقق منه الا المطاليب العادية التي تيسر حياة متوسطة، وقد كان ذلك لامور نفسية تتعلق بطباعي . وحدث ذات مرة انني اقتنيت لنفسي بندقية صيد طراز برونينك عيار ١٢ ، فقد كنت منذ صغري مغرما برياضة الصيد ، ولكن ملك لم تصدق ذلك بل اعتبرت انني امتع نفسي بالحياة دون ان اشعرها ، وحسبت انني ساحرمها من كل شيء باسلوب ناعم . من اجل ذلك وجدت حجة ضدي . وقد كانت تجد دعما قويا من امها واختيها العانسين وعمتها ، وهي بالنسبة لهؤلاء كانت تجد الشجاعة الكافية لتقول امامي بان الحياة معي اصبحت جحيما لا يطاق .

تذكرت تلك الاحداث في شيء من الاختصار ، فقد كانت مشاعري متحفزة للدخول في حالة من حالات ارتكاب الجرائم ولم يكن ذلك القرار من السهولة بمكان ، بل انني لم اقرره الا بعد ان ايقنت من ان زوجتي خانتني مع شاب ميسور الحال اسمه « رصين» . حدث ذلك اول ما حدث في المدينة .. شاهدها كثير من الناس الى جانبه في سيارته الخاصة ، ثم زعم اخرون انها حضرت معه فيلما سينمائيا ، وادعت بعض النساء انها سافرت معه في رحلة قصيرة بعد ان اوهمتني انها في زيارة جدتها .

وهناك كثير من الشائعات انطلقت بها الالسن وانصبت على ضميري وكونت عزيمتي في اتخاذ قرار القتل .

وليت الامر كان بهذه الصورة ، فان رصين تبعنا الى المصيف بسيارته الصغيرة واتخذ لنفسه مسكنا قبالتنا ، واخذ يقف كل يوم صباحا في نافذة مسكنه فيحادث ملك محادثة لا يفهم كنهها الا العشاق ، فهو تارة يصقل شعره بيده فترد عليه ملك برفع خصلة شعرها وهو تارة اخرى يطرح المنشفة على وجهه مقبلا شخصها الاعتباري ، وهي من ذلك ترق له ابتسامة عذبة . كنت ارى من سريري كل تلك الاحداث حتى اجمعت على التخلص من ملك . وذلك في زعمي خير حل لقضيتي.

ونهضت من سريري فارتديت ملابسي وانا اتحاشى الضوضاء ، ثم انتزعت البندقية وسقت الطلقات الى بيت النار ووقفت بجانب رأسها المغمور بشعرها الذهبي مصوبا فوهة البندقية الى جبينها الفسيح الناصع الذي كثيرا ما قبلته في احتراق .

قبل ان اضغط على الزناد .. ارتجفت يداي واختلجت ساقاي واخذتا تضربان بالبنطال فتحدثان حفيفا يشبه حفيف الشجر ، ثم ارتعدت فرائصي وظهرت غشاوة امام عيني ولم يعد بامكاني تمييز شيء فابتعدت خائر القوى وارتميت على اريكة طولانية خضراء .

جاشت نوازع الشرف في صدري ، وبدأ شيء في داخلي يقول .. انك جبان .. انك جبان . واذكر انني سمعت صوت امها يقول انني سببت لابنتها امراضا خفية . ومرت بخاطري شتى انواع المشاحنات التي غامت في سماء حياتنا ، وقد كان مبعثها الوحيد على ما اذكر حنثي بوعودي وشرائي لنفسي بندقية صيد .

تذكرت هذه الخلاصة للمشاكل ثم جددت العزيمة ولكنني في هذه المرة تأثرت بجمالها ، وشعرت بان رقة شفتيها واستدارة وجهها وجمال عينيها قد ازاحت عن نفسي كابوس الغضب . ولكن الغضب في اصله لم ينقص فقد كانت ملك قاسية ، فكثيرا ما قالت انني رجل استحق ان اعيش بعيدا في الجبال والكهوف لانني متوحش . وكان البرود هو امضى سلاح اقابلها به . ولكن ماذا كانت نتيجة هذه المهاترات ، لقد ضربت بنصائحي عرض الحائط بل وزادت بالامر انها اخذت بعادة التدخين ـ بعد ان اتخذت لنفسها خليلا يقاسمها همومها المزعومة ويسري عنها احزانها المصطنعة ـ اما من ناحيتي فلم تستطع انتقاداتها ان تثنيني عن عزمي في اتقان فنون الصيد ، بل زدت في الامر انني ابتعت كلبا سلوقيا لمطاردة الثعالب والارانب وما اشبه ذلك .

احسست ان المشكلة ما زالت معقودة وانه ما تكاد تشرق الشمس حتى تعود ملك الى صنعتها في مغازلة رصين . فقلت في نفسي « فلاضغط على الزناد ان ذلك لن يكلف عضلاتي الا جزءا يسيرا من القدرة ... انني سأتبرع بهذا الجسد الى الموت » واحسبني وجدت رصيدا من الاجوبة المقنعة التي حاولت فيها موازنة الامر في نفسي ، فقلت في غضب « انني اتنازل عن جسد زوجتي الى الموت دفاعا عن الشرف ، واخلادا للسكينة وابعادا للقلق الوجداني وتمشيا مع العرف الاجتماعي .. » بواسطة تلك الاعتبارات قررت غسل العار . ولما اعتزمت الاطلاق سقطت في غيبوبة ليست عميقة . وسمعت صوت ضوضاء حسبتها طلقة بندقية ، ولكنني لما صحوت عرفت انها صدرت بسبب وقوعي على الارض .

قررت بعد لحظات ان اقتل رصين عوضا عن ملك ، لان ذلك ـ من الناحية الاقتصادية ـ اكثر ربحا ، فاذا ما ذهب رصين بقيت ملك قربي ترهب جانبي وتنظر الي بعين ماؤها التقدير والتعظيم والاعجاب بقوتي وعمق غيرتي عليها .

وخرجت من المنزل قاصدا مكانا اختفي خلفه ، ولم ار خيرا من خم الدجاج ، فانبطحت ومددت ماسورة البندقية خلال اغصان الشجر اليابسة ، واحسبني وجدت نفسي على استعداد لان انفذ ما يجيش في نفسي من نوازع اخلاقية مثالية . وبناء على ذلك قال هاتف في نفسي يمتدح مجهودي : « انك تقوم بمهمتك خير قيام يا معن فليس هناك اي تقصير من جانبك ، وليشهد التاريخ انك مخلص للفكرة متحمس لها كاي رجل ما زال يملك رصيدا وافرا من حب الاخلاق » وسرعان ما سكت الهاتف عن اغرائه المجاني ،ولكنني استنتجت من كلامه ما جعلني اخاطب نفسي قائلا : « وعلى كل حال فان القضية مرهونة ايضا بمدى الية بندقيتي فان استعصت هذه او غصت ، فذاك حل وسط قد اقنع به برضا القلب والضمير لانني في الحقيقة عاجز عن معاندة القدر والسير في غير ركابه ، فانا لست نجيبا لدرجة انني انكر قوة القدر » واخيرا ظهر رصين .. يسير سير من يستنشق الهواء النقي بغية تنقية شعيرات رئتيه .. ان ذلك المسكين يحسب انه سيعيش طويلا ، وهو يقطف وردة ويشم عبيرها .

ومرة اخرى وقبل ان اضغط على الزناد برزت امام عيني صورة زوجتي ملك ، وبدا لي وجهها هذه المرة مقترنا بصورة لجدول نفقات ، وعندئذ اكدت في نفسي انني بواسطتها انفقت سمعتي وهدرت سعادتي وسكوني، ولولا هذا الايراد الذي انتظر قيده في ضميري بقتل رصين لاختلت ميزانية الاخلاق ، في نفسي اشد الاختلال ، ومهما يكن فان صورتها هذه اعادت الى مخيلتي ذكريات جميلة .. ذكريات ليالينا الاولى حيث لم تكن امها قد انشبت اظافرها في حياتنا بعد .. كانت حياتنا قابلة لان تثمر ثمارها وتسير كما تسير ساقية جميلة صغيرة في مجرى نهر كبير جاف ، ولكن امها واختيها العانسين وعمتها وحتى اخت جدتها ، سكبن فيها احقادهن واعطينها جميع العقد النفسية التي سببها عصر الانتقال حيث شاهدن في اخر عمرهن حياة جديدة لم يكن لهن فيها النصيب الوافر . وقد كانت الام تعلم حق العلم انني لن اغيظ ابنتها ولن اضيق عليها الحياة لانني « كما قالت قبل الخطبة » مرن دمث الاخلاق لين .. مطيع .. مهذب . غير انه ما كادت تمضي بضعة اشهر على زواجنا حتى راحت تحشر انفها ، ان مسالة حشرة انفها معقدة وطويلة ولا يمكن تفصيلها الا انه يمكن القول بان مطالبة عائلة زوجتي تركزت حول شراء سيارة من طراز (اوبل) ولكنني ، رغم ميلي لشراء مثل تلك السيارة ، احسست بانفة وكبرياء وما اردت ان اذهب طيلة حياتي مذهب من تجرفه موجة عاتية من موجات رغائبهم التي لانهاية لها . كنت اريد ان احقق كل شيء .. ولكن بارادتي ودون ان يكون هناك من يأمرني ، وحاولت في تلك الفترة ان اكتشف السر .. سر هذا الاختلاف الذي نشب فجأة ولكنني لم افلح ، فقد بقيت جاهلا ملك .. وامها واختيها العانسين وعمتها واخت جدتها .. كن جميعا بالنسبة لي لغزا لم استطع حله ، فكثيرا ما كن يظهرن لي وكانهن الملائكة ، وكثيرا ما كن ما يظهرن لي وكانهن الذئاب .. وبقيت الحالة شبه متجمدة ردحا طويلا الى ان ارتفعت التعرفات الجمركية المفروضة عن السلع والكماليات ، وكان من حسن الحظ انني ابتعت بندقية الصيد قبل يومين . وهكذا وقفت خلف حصن رفع التعرفات الجمركية مطمئن البال ، وخلفت ورائي عائلة ملك تتلهى بموضوع جديد .. موضوع التعاسة التي فرضها الله على ابنتها ... ان العائلة وجدت بعض سلواها .

كنت ساتذكر بلا شك بقية الحوادث التافهة التي اعقبت فترة ارتفاع التعرفات الجمركية ، ولكن رصين اقترب حتى اصبح على بعد عدة امتار فقط ثم قفل راجعا وكانه نسي شيئا . وهكذا افلت رصين من الموت المحقق ، مع العلم انه دنا من فوهة البندقية دنوا شديدا بحيث ان الواجب كان يقتضي ان اصرعه . ولا ادري وقتئذ ما الذي فجر في نفسي ينابيع ثرة من الفرح والغبطة والسعادة الدافئة واذكر انني خاطبت نفسي .. « يالابداع القدر .. انظر يا معن ما احلى الحياة بدون ان يرتكب المرء جريمة انني الان هادىء ثابت الجنان .. » وانتشرت امام ناظري صور كتب المؤلفين الاجتماعيين الذين قرأتهم في الشتاء الماضي.. تخيلت اولئك العمالقة الذين نقضوا كثيرا من نظريات الاخلاق التقليدية ووجدت في اقوالهم ملجأ لنفسي المترددة ، واستطبت جميع ما كنت اراه خليعا هداما في افكارهم (يوم كانت ملك مخلصة لي فقط) ..انهم في الحق فلاسفة .. انهم يحبون السلام .

وحينما اردت ان اتراجع عن خطة القتل ، رأيت دجاجاتي تمضي اوقاتها مع دجاجات رصين . ورصين هذا كان قد ابتاع عدة دجاجات من نوع « لي غورن » منذ قدم المصيف ليوهم الناس انه مقيم هنا طلبا لتناول البيض نيئا طازجا بناء على اوامر الاطباء .

ولشد ما غاظني هذا الاختلاط ، حيث كان بين دجاجات رصين ديك عال .. يبدو انه متمرد وذو شخصية حادة مهيمنة .. اما الديك الذي امتلكه فقد بدا لي جبانا ، رعديدا ، الا انه اوحى لي في الوقت نفسه بانه ديك مهذب ووجيه .

واذكر انني شعرت وقتئذ بيقظة الضمير ، وايقنت ان سمعتي حقا اصبحت في الوحل ، واخذت افكر كما يفكر كل رجل رجعي متعصب يعيش عمره وهو يقتات من ذات نفسه محرقا كيانه في سبيل الدفاع عن مركزه في المجتمع . قررت ان اكون ذلك الشخص البغيض ، فقد عرفت ان العزة والكرامة اقدم وجودا في الانسان من ميل التواطؤ واللامبالاة ، وانهما احق بالصيانة من الابقاء على رغبات الجسد ومراعاة ما يتفرع عن تلك الرغبات . واذا كان هناك جبناء يرضون بالذل والعار، ويقبلون بالخزي على انه حالة طبيعية صيغت صياغة فيها تجن وظلم وجور حتى غدت مكروهة منبوذة من المجتمع ، فانني لن ارضى ان اكون ذلك الجبان الذي سيعيش في مجتمع كله اناس وفضائل . قررت ان اكون ذلك الرجل الشهم الكريم الخصال الذي يؤمن بان سلام المجتمع انما هو من سلام النفس وخلود الخواطر .

عند هذا الحد من الانفصال ضغطت على الزناد فدوت الطلقة في الارجاء .. كانت طلقة عنيفة .. ظننت انها طلقة مدفع .. وسرعان ما داهمني شعور بالفزع ولكنني سرعان ما تبينت الامور .. شممت رائحة البارود ثم رأيت الدجاجات وقد تبعثرت هنا وهناك .. الا ذلك الديك الاثم من نوع (لي غورن) فقد ظل مكانه . ففرحت وقلت (انه ولا شك ينزف) .. واقحمت نفسي بين الاشواك واقتربت منه لاشهد بام عيني كيف سيقع على الارض ولكن الديك المذكور ما لبث حتى نفر مني ثم ابتعد وجعل يلتقط حبات القمح . وسرت في جسدي رعدة شديدة واحسست ان شعر راسي قد انتصب .. وما هي الا فترة حتى حانت مني التفاتة الى جميع الدجاجات فشاهدت الديك الذي املكه وقد سقط .. فعرفت ان الطلقة اخطأت هدفها .

شعرت انني بحاجة الى البكاء حينما انحنيت احمل الديك المسكين الذي لقي حتفه دون ذنب منه ، ولكنني امسكت زمام نفسي .. فقد شاهدت ملك من نافذتها تنظر الى رصين ـ ويبدو ان صوت الطلقة هو الذي ايقظها ـ كما شاهدت رصين يطرح على وجهه المنشفة ويقبل شخصها الاعتباري .

عبد الرحمن البيك